من تراب الطريق (٤٦٧) مرآة الزمن (*)

بين متعلقاتى الشخصية ، متروكات قديمة لم أعد أستعملها ، ولكنى حريص على استمرار حفظها ، بعضها ربما من باب الوفاء وإن كان لشىء من الجمادات التى لا تحس ولا تستقبل المشاعر ، وبعضها ربما انصياع لغريزة التعلق بالقديم وما صاحبه من ذكريات تهوى النفوس النزوع إليها من حين لآخر ، ومن هذه المتروكات «دامبلز » Dumbbells لم أعد أستخدمه ، وفى صالة الجيمنيزيوم التى أرتادها بالنادى ما يغنى بالبداهة عنها ، ومنها «باتيناج» أو «سكيتنج » (skate) ظللت حتى سن العشرين وفيا لممارسة رياضة الانزلاق به ، ومع أننى مع حبى الشديد لها توقفت تماما عن ممارستها منذ نحو نصف قرن ، إلاّ أننى لم أقبل قط التفريط فى هذا القبقاب الحديدى ذى العجلات الأربع ، ويبدو أننى لم أفقد الأمل قط فى أن أعود لارتدائه والجرى به ، فقد كنت ماهرًا حاذقًا فى ممارسة رياضته أيام الصبا والشباب . لا جدال أنه ليس للاحتفاظ به حتى الآن معنى يستسيغه العقل ، واستمرار الأمل فى العودة إلى ارتدائه وممارسة رياضته أكثر خداعًا من السراب ، ومع ذلك تشبثت به تشبث الطفل بأمه ، لا أطيق التخلص منه ، وأحرص من وقت لآخر على استعراضه والنظر إليه ولكن دون أن أتورط فى محاولة ارتدائه والمشى ـ ناهيك عن الجرى ـ به ، حتى كان يوم من نحو عشر سنوات ، وكنت قد جاوزت الستين ، ولا أدرى ما هى الدوافع التى حدت

(*) المال ١٢/ ٧/ ٢٠١٠ .

بى لأخذه معى ضمن أدوات الرياضة إلى الفيلا التى أقتنيها منذ عام ١٩٩٠ بالساحل الشمالى .. وظل «الباتيناج» أو القبقاب الحديدى بعجلاته الأربع فى مربضه دون أن أقترب منه ـ إلاَّ بالنظر إليه عن بعد من وقت لآخر والتملى فيه واسترجاع الذكريات التى كانت ، حتى كان يوم أجلس فيه بالحديقة المطلة على شارع القرية الساحلية ، ولا أدرى أى شيطان أخذنى أخذا إلى «القبقاب» الحديدى وهيأ لى أن أسفلت الشارع الناعم ، وخلوه من حركة السيارات ، فرصة ذهبية لتحقيق ما يبدو أننى كنت أرغب فيه رغبة مكتومة .. وعبثا حاولت زوجتى وأولادى إثنائى عن إحضاره والشروع فى ارتدائه .. ولكنى تشبثت بذلك تشبث من طال جوعه فجعل يتعلق بعظمة . بهمةٍ ونشاط وضعت قدمى بداخل «القبقاب» ، وكلى ثقة أننى سأجرى به كما كنت أجرى فى الزمن الأول ، ولكن ما إن نهضت ووقفت لأبدأ ما تخيلت أننى قادر عليه ، حتى تخلخلت الركبتان واهتز الساقان وأوشك أن يحدث ما لا تُحمد عقباه ، لولا أن سارعت بالعودة إلى الجلوس على المقعد الذى كان لحسن الحظ لا يزال خلفى !

يبدو أن الإحساس بمرور الزمن وأثره ـ نسبى ، ومعظمنا لا يشعر بزحفه عليه إلاَّ من خلال انعكاساته على الآخرين ، سيما إذا انقطع عن رؤيتهم فترة ، فيفجأه ما آل إليه حالهم حين يراهم ، فيستحضر ذلك أثر الزمن عليه ، هذا الأثر الذى تفوت مطالعة «المرآة» اليومية ملاحظة تطوراته التدريجية ، فيراها دفقة واحدة فى الصديق أو القريب أو الزميل الذى يراه بعد زمن .

ويبدو أن «شباب القلب» حين لا يشيخ ، يفوت ملاحظة زحف الزمن على الجسد ، فلا يلاحظ إلاَّ من خلال أمارات جسدية حين تصطدم الرغبة

بالقدرة التى تتحلل وتتراجع وتخفت بمرور الزمن ، ومنا من يشاهد المباريات الرياضية ويتصور أو يظن أن بمستطاعه أن يجرى ويلعب ويفعل ما يفعله اللاعبون ، ولا يفيق من هذا الوهم إلاَّ حين يحاول محاكاتهم فيصدمه واقع الجسد الذى وهن وغادرته القوة والمرونة وسرعة التلبية العضلية وخبو اللياقة البدنية !

التناسب العكسى الوحيد الذى يناقض شيخوخة البدن ، هو نمو واتساع وجلاء العقل واطراد قدراته بعكس خفوت باقى الوظائف العضوية ، بيد أن هذا التعويض لا يدركه ويقدره إلاَّ من يقدرون ويعلون العقل ، ويرون فيه القيمة الحقيقية للعطاء الإنسانى . على أن هذا التعويض ـ العقلى ـ لا يخلو بدوره من منغصات معارضة معاكسة حين تصيبه بدوره الشيخوخة والخرف ، وقد ينجو منها البعض حتى آخر العمر ، وقد يُرزأ بها آخرون قبل ميقاتها المقدور ، فيعانون خفوت وربما ذهاب العقل ، وقد صور القرآن المجيد هذه الحالة أبلغ تصوير ، فقال الحكيم الخبير : ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [النحل] .

وفى سورة الحج : ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج ٥] .

كان أبى الروحى الأستاذ الجليل محمد عبد الله محمد ، شديد الالتفات إلى هذه الآية .. أذكر أننى طالبته يوما أن يترفق بنفسه فيما يبذله من جهود مضنية فى البحث والكتابة وكأنه ابن العشرين ، فأجابنى فى رفق : «أخشى يا رجائى أن تنطفئ الكهارب فجأة قبل أن أنجز ما فى ذمتى إنجازه» .. وقبل أن أسأله أى كهارب يعنى ، بادرنى يقول : «نور العقل» .

العاقل من يدرك أن الحياة تمضى على سنن التعويض ، فلا يتوارى شيء بغير بديل يحل محله ، وقد يعوضه بشكل ما ، فلا تكاد أوراق الشجر تسقط إلا وتنمو بدائلها ، لذلك كان الرضا والتسليم هما غاية العاقل ، فيهما تصب كل الرجوات فى حياة الإنسان التى لا تبقى على حال ولن تبقى على حال !

*****